٨- سورة الأنفال

قوانين النصر ربانية ومادية.

(١) مقدمة: أنزلت هذه السورة بعد غزوة بدر للتعقيب عليها، لذلك سماها بعض العلماء (سورة بدر)، وغزوة بدر هي أول معركة في الإسلام، وسماها الله في هذه السورة بـ(يوم الفرقان)، لأنه اليوم الذي فرّق الله به بين الحق والباطل، يوم يمثل فرقًا بين عهدين في تاريخ البشرية: عهد كان الإسلام فيه مستضعفًا وعهد سيكون فيه الإسلام قويًا، لقد كان يومًا عظيمًا.

تبدأ السورة بسؤال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ (١)، أي الصحابة يسألون عن كيفية تقسيم الغنائم.

العجيب أن الجواب عن سؤالهم عن تقسيم الغنائم لم يأت بعد السؤال مباشرةً، إنما جاء الجواب في الآية (٤١): ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ...﴾، أي بعد ٤٠ آية من السؤال.

وسبب تأخير الإجابة أنهم حين سألوا السؤال كانوا يريدون المكافأة الدنيوية على النصر، والله علمهم أن النصر أولًا وآخرًا هو بتقديره ومن عنده سبحانه وتعالى، فكان الجواب المبدئي على سؤالهم: ﴿قُلِ ٱلانفَالُ لله وَٱلرَّسُولِ﴾ (١)، وليس لكم منها شيء، وذلك من لطف القرآن في التربية.

لو كان النصر يقاس بالمقاييس المادية، فإن المسلمين لم يكونوا لينتصروا في ذلك اليوم أبدًا، لأن عدد المسلمين كان ٣١٣ رجلًا ولم يكونوا مهيئين نفسيًا أو مجهزين عتادًا للقتال (كان معهم فرس واحد)، في حين كان عدد الكفار ١٠٠٠ مقاتل كامل الجهوزية للحرب (كان معهم ٣٠٠ فرس).

(٢) ما تعودنا عليه وما يفعله القرآن:

الذي تعودنا عليه: أن المنتصر يتلقى التهنئة بالفوز، بينما يتلقى الخاسر اللوم والتقريع.

أما القرآن فيقوم بشيء مختلف تمامًا: في "آل عمران" جبر خواطر المكسورين بعد هزيمة أحد، وهنا في الأنفال بعد نصر يوم بدر؛ اللهجة شديدة القوة، بدلًا من أكاليل النصر المتوقعة، هناك المحاسبة، وبقوة.

لكن هذا لا يحدث إلا لحكمة بالغة:

فالمهزوم قد يحتاج إلى أن يجبر خاطره كي يتمكن من أن يعبر هزيمته نحو الضفة الأخرى.

أما المنتصر فلِمَ يُحاسب؟

لأن نصره ببساطة يمكن أن يتحول إلى هزيمة أكبر من هزيمة الخاسر، لو سقط في وهم الغرور، وتصور أن النصر كان نتيجة حتمية لجهوده.

لذا تأتي "الأنفال" لكي تجعل المنتصر يعيد حساباته ويراجع نفسه، كما لو كان قد تلقى هزيمة قاسية توجب عليه المراجعة وإعادة التقييم.

فتبدأ السورة بـ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ...﴾ (١)

اتقوا الله واصلحوا ذات بينكم؟! كانوا على وشك الاعتقاد أنهم على قمة جبل التقوى والصلاح، لكن تعالجهم السورة في مطلعها وهي تقول لهم: اتقوا الله.

ثم تذكرهم أن منهم من لم يكونوا يريدون الخروج لبدر أصلًا، وأنهم جادلوا في ذلك: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٥، ٦).

جادلوا فيما قاد إلى هذا النصر الذي يمكن للشيطان أن يوسوس لهم أنه كان نتيجة حتمية لجهودهم.

ثم تسحب السورة منهم "استحقاق النصر": ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (١٧).

هل أصابكم الغرور على هذا الذي تحقق؟ حسنًا، خذوا هذه الآن: أنتم لم تقاتلوا أصلًا، وهذا الرمي الموفق لم يكن رميكم، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

ولننتبه أن هذا لم يحدث قبل القتال، بل حدث بعده، وبعد تحقق النصر، ولو كان حدث قبل لما قاد إلى النصر.

خطاب ما قبل المعركة كان مختلفًا جدًا ومنسجمًا مع: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (٦٠).

ولو اعتقد المؤمنون قبل القتال أنهم لن يقاتلوا ولن يرموا، بل الله هو الذي سيفعل، فذلك لن يجعلهم حريصين على شيء، بل ستفتر همتهم.

في كل نصر هناك طاووس رابض كامن ينتظر اللحظة:

طاووس مزهو، يتحرك بخيلاء، طاووس مفترس، يفترس صاحبه ويحيل نصره إلى هزيمة أقسى من هزيمة الخصم.

لكن سورة الأنفال تقترب منك، وتعطيك سكينًا، يمكنك أن تذبح هذا الطاووس.

(٣) قوانين النصر مادية وربانية:

بعض الناس يظنون أن النصر معجزة ربانية فقط، فتراهم يدعون الله لينصرهم، وبعد ذلك يتساءلون عن سبب تأخير النصر، فهم حقيقة لم يفهموا أن هناك أسبابًا مادية ينبغي الأخذ بها من تخطيط وجهد وبذل، فلا يكفي الدعاء واللجوء إلى الله مع ترك الأخذ بالأسباب، لأننا بذلك نكون مقصرين في فهمنا لطبيعة ديننا ولسنن الله في هذه الأرض.

وبالمقابل: هناك نوع آخر من الناس يأخذون بالأسباب كلها من وضع الخطط والدراسات وجهد بالليل والنهار، ثم اعتمدوا على هذه الأسباب، ونسوا أن النصر من عند الله.

فتأتي السورة ترشدنا إلى التوازن: وأن للنصر سببين هامين:

١. **اليقين بأن النصر من عند الله عز وجل:** ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (١٠).

٢. **الأخذ بالأسباب:** ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (٦٠).

(٤) الرسالة:

١– النصر من عند الله.

٢– الحذر من تحول القتال من إعلاء كلمة الله إلى طلب المغانم الرخيصة.

٣– احذروا الفرقة من أجل الدنيا، فالفرقة وحب الدنيا هما اللذان يضيعان قوانين النَّصر والتمكين.

٤– الغنائم من الدنيا، والخلاف عليهم خلاف على الدنيا، والله يريد أن يرسخ في قلوب المؤمنين قوانين النصر بعيدًا عن الدنيا (الغنائم قضية فرعية أمام القضية الهامة التي هي تقوى الله).

(٥) أسماء السورة:

١– الاسم التوقيفي: الأنفال.

٢– معنى الاسم: الأنفال: هي الغنائم التي يَغْنَمُها المقَاتِلُون في الحرب.

٣– سبب التسمية: لذكرها في الآية الأولى، ولم يرد لفظ الأنفال في غيرها من سور القرآن الكريم.

٤– أسماء أخرى اجتهادية: "سورة بدر" لأن معظمها في ذكر هذه الغزوة، و"سورة الجهاد".

(٦) جدول السورة:

ترتيبها:	في المصحف: ٨	في النزول: ٨٨	في الطول: ١٨	
تصنيفها:	مدنية: ٢٨/٥	المثاني: ٣٠/١		
عدد:	الآيات: ٧٥	الصفحات: ١٠	٠,٥ جزء	١ حزب	٤ ربع
موقعها:	بدايتها في الجزء: ٩	نهايتها في الجزء: ١٠		
فاتحتها:	الجمل الخبرية: ٢١/١			

(٧) من خصائص السورة (مما تتميز به السورة عن غيرها):

١- أول سورة -بحسب ترتيب المصحف- تفتتح بالجملة الخبرية من أصل ٢١ سورة افتتحت بذلك.

٢- نزلت بعد غزوة بدر (رمضان ٢ هـ) لتعقب على أحداثها.

٣- اهتمت ببيان أحكام تشريع الجهاد في سبيل الله، وقواعد القتال، والإعداد له، وإيثار السِّلم على الحرب إذا جنح له العدو، وآثار الحرب في الأشخاص (الأسرى) والأموال (الغنائم).

(٨) مقصد السورة: قوانين النصر ربانية ومادية.

(٩) علاقة محور السورة بالتسمية: الأنفال رمز للتنافس على الدنيا ونسيان قوانين النصر.

(١٠) خرائط السورة: في ملف الخرائط.

(١١) موضوعات السورة: آخر الملف.

(١٢) علمتني سورة الأنفال:

١- علمتني سورة الأنفال أن المؤمنين حقًا هم من نجحوا في ترجمة العبادات والإيمانيات إلى معاملات وأخلاق، ثم إلي عمل وجهاد، فالسورة بدأت بـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢، ٣)، وانتهت بـ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤).

٢- علمتني سورة الأنفال أن المؤمن لا يخلوا من الذنوب كلها، هذا محال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ(مَغْفِرَةٌ) وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤)، بل المؤمن كالفرس المعقود حبله في مكان ثابت مهما بَعُدَ يعود إلى مكانه، كذلك المؤمن إذا نأت به المعصية أحيانًا يعود إلى مولاه، ويجدد التوبة، ويأتي بالحسنات علّ الله أن يكفر بها ما سلف من الخطايا.

٣- علمتني سورة الأنفال أنها ترسم لنا تلك الشخصية القرآنية العظيمة التي أدرك صاحبها غايته جيدًا، فكان بين يدي ربه خاشعًا متذللًا باكيًا تائبًا، يسمع آيات القرآن فتغيره وتربيه، يسرع الى صلاته ويستمتع بمناجاة ربه، يكثر من الصدقات ويضع ماله ووقته ونفسه كلها وقف لله عز وجل، ووقت نصرة الحق والدين مجاهدًا متقدمًا، ووقت توزيع الغنائم غائبًا.

٤- علمتني سورة الأنفال أن أنسب الفضل لله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (١٧).

٥- علمتني سورة الأنفال أن ألزم الاستغفار: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣)، ففي زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان المانع مؤقت وهو وجود النبي بينهم، أما المانع الدائم فهو الاستغفار.

٦- علمتني سورة الأنفال كيفية توزيع الغنائم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ...﴾ (٤١).

٧- علمتني سورة الأنفال أن التنازع سبب الفشل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (٤٦).

٨- علمتني سورة الأنفال عدم التشبُّه بالكافرين في أفعالهم وأقوالهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٤٧)، بل وجب علينا ألا نغتر أو نتفاخر بالنصر، لا يقل أحدنا: أنا قَتلت، أو أنا فعلت كذا وكذا، أو أنا أَسَرت، فهذا الفخر والعُجب لا يليق بنا.

٩- علمتني سورة الأنفال أن السورة التي تؤكد أن النصر من عند الله وحده هي نفسها تؤكد ضرورة الأخذ بالأسباب: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (٦٠).

١٠- علمتني سورة الأنفال أن الله هو الذي أنزل المحبة والمودة بين قلوب المؤمنين، ولولا هذا الدين لما توادوا ولا تحابوا: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ (٦٣).

١١- علمتني سورة الأنفال أن صلاح البواطن يؤثر في صلاح الظواهر، وأن حصول الخيرات بسبب حسن النيات: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠).